

سابقة الأدب العربي

ديوان علم الدين المحيوي

للدكتور زكي مبارك

غرائب التاريخ الأدبي

إن تاريخ اللغة العربية أعجب من العجب ، فقد مر بها عهد قدرت فيه على أن تنزق قلوباً كانت من الجفاء بمكان . ونستطيع أن نحكم بأنه لم يتفق لأية لغة من اللغات الفنية أن تجتذب الغرباء كما اتفق ذلك للغة العربية . وصحة هذا الحكم في غاية من الوضوح والجلالة ، فالإنجليز مثلاً سيطروا على كثير من بقاع الأرض ، ومع هذا لم يتيسر النبوغ في الأدب الإنجليزي في البيئات الأجنبية لغير آحاد . وكذلك يقال في الأدب الفرنسي ، فالنبوغ فيه مقصور على أهله ، ولم ينبغ فيه من الأجانب غير أفراد

وقد قلت مرة إن الفرنسيين لا يعترفون بالأدب البلجيكي ولا بمدونه من الأدب الفرنسي إلا بتحفظ ، مع أن البلجيكي يتكلمون بلغة الفرنسيين منذ أجيال

فأما الأسباب التي جعلت لغة العرب لغة محبوبة يتسابق إليها الأجانب ؟ وكيف أمكن أن تكون الكثرة من أدباء اللغة العربية ترجع إلى أرومات غير عربية ؟

السبب الظاهر هو الإسلام ، وهو دين لا يمتزق بالمصيبة القومية ، ولا يقيم لها أي ميزان ، فمن حق المسلم في أي أرض أن يقول إنه من ورثة الرسول ، ومن حقه أن يتسامى إلى المنازل العالية ما دام بمتعم بمبادئ الدين الحنيف

ولكنني أعتقد أن هذا السبب الظاهر تؤيده أسباب خفية موصولة بروح اللغة العربية ، فهي لغة خلقت للحياة ولم تخلق للموت ، بدليل أنها لم تنهزم بانهزام الإمبراطورية الإسلامية ، وهي إمبراطورية لم تسيطر على العالم سيطرة حقيقية أكثر من قرنين اثنين ، فلو كانت اللغة العربية لم تمش إلا بجراحة الإمبراطورية لوجب أن تزول ، ولكنها لم تزَل ، ولن تزول للغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس ، فنتي ندرس

تلك الخصائص ؟ ومتى نعرف بالبراهين القواطع كيف استطاعت الانتصار على الموت ، مع أنها تعرضت ألوف المرات للموت ؟

هذه قضية تستحق الدرس ، فنتي ندرس ؟ ومتى نفهم أن هنالك أسراراً حيوية للغة العربية غير الأسرار التي تحدث عنها الأسلاف ؟

فخر الترك

أكتب هذا بعد ساعات قضيتها مع فخر الترك ، وهو علم الدين أيدُمر المحيوي ، أحد شعراء مصر في القرن السابع ، وهو تركي الأصل بإجماع من محدثوا عن شعره البليغ ، وهم الذين سموه « فخر الترك » لأنه في نظرهم أشعر من عرفوا من الأتراك في ذلك الزمان

وقد سكت التاريخ الأدبي عن هذا الشاعر فلم يذكره إلا في مناسبات قليلة جداً ، ولولا عناية « دار الكتب المصرية » بطبع المختار من شعره لظل من المجهيل وهل التفت أحد إلى هذا الشاعر بعد أن نُشرت مختارات أشعاره في سنة ١٩٣١ ؟

الذنب يقع على رأس دار الكتب المصرية ، فقد غلّت في ثمن تلك المختارات لجملته ثلاثة قروش ، وبثلاثة قروش نشترى علبة سجائر ، وهي أنفع من أي ديوان !

مؤلف مجهول

نعم الأستاذ أحمد نسيم رحمه الله في البحث عن ترجمة واقية لـ علم الدين المحيوي ، ثم انتهى إلى أنه شاعر نبغ في منتصف القرن السابع ، وقرر أن ديوانه ضائع ، ولم يبق غير مختارات ديوانه أحد الأدباء المجهولين

وأقول إن في هذه المختارات قطعة تشهد بأن المحيوي كان شغل نفسه بالتأليف ، على نحو ما كان يؤلف عشاق الأدب في المصور الخوالي ، فأين الكتاب الذي ألفه هذا الشاعر البليغ ؟ لم يقل أحد إن المحيوي كان مؤلفاً ، ولم يلتفت قارئو ديوانه إلى أنه كان من المؤلفين ، وأنا قد التفت إلى هذه الناحية عن غير قصد ، حين رأيته يقول في إهداء مجموع له إلى صاحب محبي الدين محمد بن سعيد :

المبدأ أيدُمر تطلب تحفة
فأجل هدية تهدي له
فأجل في روض القرائح فكره
ثم انتقى منسنة لباب لباب

تنكسى القبول لسيد الأصحاب
ذوب النهي ونتائج الألباب

« وكانت تسمى جزيرة مصر » وجدد البرج القائم على المقياس ،
وانتهز فرصة الفراغ من هذه الأبنية ليحتفل بها في يوم التخليق
فأين الشاعر الذي يسجل مجد ذلك اليوم الميميد ؟

قصيدة وقصائد

من المؤكد أن ذلك اليوم لم تُنشد فيه قصيدة واحدة ،
وإنما أنشدت فيه قصائد ، فقد كانت مصر تموج بأفواج
من الشعراء

وهذا الحديث لا يتسع لأخبار ذلك المهرجان ، فلنكتف
بقصيدة التركي المستعرب ، أو العربي المستترك ، فما نظن أن له
تاريخاً عند الأتراك

هذا الشاعر عربي اللغة ، وإن كان تركي العرق ، وقد
وصف بالعتيق ، فهل كان مملوكاً لأحد الأمراء ؟

إن تعقبنا هذه القضية فسنعرج التاريخ في مرقدته ، وسنشير
حوله مضجرات لا تطاق

المهم أن نسجل أن الشاعر كان معروفًا بالجمال والظرف ،
وأنه قهر أحد الوافدين من حلب على أن يقول فيه هذه الأبيات :
وكنت أظن الترك تحتص أعين لهم إن رنت بالسحرفها وأجفان
إلى أن أتاني من بديع قريضهم قوافي السحر الحلال وديوان
فأيقنت أن السحر أجمه لهم بقر لهم هاروت فيه وسجبان
وعيون الأتراك لها في الشعر المصري مكان دل عليه
ابن النبيه حين قال :

يصد بطرفه التركي عني صدقم إن ضيق العين يُخلُ
والذين رأوا الميموي لم يفهم النص على أنه كان فتى خفيف
الظل ، ولطيف الروح ، ويكفي أنه عاش في عصر البهاء زهير ،
فتحت يدي نص صريح بأن البهاء كان نهاية النهايات في دمامة
الوجه وقبح الخلق ، واضطراب الملامح ، ومعنى هذا أن البهاء
ستر دمامته بحلاوة اللسان ، كما صنع الجاحظ في قديم الزمان !

القاهرة البهيمة

هي قافية الميموي في تهنئة الملك الصالح بالأبنية التي أقامها
في جزيرة الروضة ، والبرج الذي جده حول المقياس . ويحسن
أن تذكر قراءة بأن الملك الصالح بقيت له ذكرى هناك ، فأول
جسر على النيل في مشارف الفسطاط ٤٣١ « كوبري الملك
الصالح » فليترحم عليه من يمر فوق ذلك الجسر في الصباح

من طيب نادرة ولطف فكاهة وبديع بادرة وحسن خطاب
وسرائر الأمثال قد وشحتها فيه بمعجز بستة وكتاب
ثم مضى فذكر أن كتابه جمع بين الجد والهزل ، وجمع
نوادير الحكاء والبلقاء والخطباء والشعراء والكتّاب ، وجمع
بين رقة الحضر وجزالة الأعراب . فأين ذلك الكتاب ؟

نرجو البحث عن هذا الكثر الدفين

طيف البحري

عند هذا التركي المستعرب أطياف بحرية ، فله قصيدة تضاف
إلى ديوان البحري بدون عناء ، لو كان البحري زار الروضة
ورأى المقياس ، مقياس النيل

هي قصيدة قافية تقع في نحو مئة بيت ، وهي من الشعر
الجزل الرصين ، وفيها لغات في غاية من الجمال

الروضة والمقياس

نحن اليوم لا ندرك معنى شعرياً لهاتين الكلمتين ، بسبب
طينان القاهرة على الفسطاط ، وهل نعرف اليوم أين الفسطاط ؟
لقد قضى شعراء مصر مئات من السنين وهم يتحدثون
عن الروضة والمقياس ، بفضل ما صنعت هاتان البيعتان في إذكاء
المواطف ، وإيقاد القلوب

كان الحديث عن الروضة والمقياس سنة شعرية . وأنا
رحمت البارودي في دراسات السنة الماضية فلم أقل إنه تحدث
عن غرامياته بالروضة والمقياس حديثاً هو المحاكاة لما قرأ
من قصائد الشعراء القدماء

وأين الفاهري الذي يسأل عن الروضة والمقياس ، بعد
أن انتهت حروب العيون والقلوب حول الروضة والمقياس ؟
هل كانت للبارودي غراميات في هاتين البيعتين ؟
أنا أستبعد ذلك ، وأرجح أنه بكى واستبكى فوق أطلال
الذكريات الموهومة لقدماء الشعراء

يوم الخميس

كان للمصريين يوم في كل عام يسمونه يوم التخليق ،
والتخليق وضع الخلق على عمود المقياس ، والخلق هو أنواع
من الطيب أشهرها الزعفران

وكان ملوك مصر في العهد الإسلامي يحرصون على أن
تكون لهم آثار يافية بجانب الروضة والمقياس ، وقد أهتم
الملك الصالح نجم الدين أيوب فأقام الأبنية الشاخنة في الروضة
٢١٠٣٠

أور في المساء ، وليتذكر كل عابر أن تلك البقعة كانت ملاعب صباية ومدارج فنون ، بأقوى وأعنف مما كانت حومل والدخول بدأ الشاعر قصيدته بوصف أيام الربيع وصفاً لو ترجم إلى لغة من لغات الغرب لا اعترف الغرب بأن وطن الشعر - والشرق ، ولننظر كيف يقول علم الدين :

الروض مقتبل الشبية موقنٌ خَصِلٌ يكاد غضارة يتدفقُ
نثر الندى فيه لآلى عِقدِه فالزهر منه متوج ومنطقُ
وارتاع من صرّ النسيم به ضحى فغدت كإثم زهره تنفتق
وسرى شماع الشمس فيه فالنقى منها ومنه سنا شوش تُشرق
والنصن مياس القوام كأنه نشوان يصبح بالنميمة ويُنبق
والطير ينطق مبراً عن شجوه فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
غرداً بغنى للنصون فتثنى طرباً جيوب الظل منه تشق
والنهر لما راح وهو مسلسل لا يستطيع الرقص ظل يصفق
فتملّ أيام الربيع فأنها ريحانة الزمن التي تستنشق

إن الصياغة جيدة إلى أبعد حدود الجودة ، بحيث يُظن أنها لشاعر من صميم العرب لا من الترك ، والمغاني مألوفة ، فقد طاف حولها كثير من الشعراء ، ولكنها مبتكرة مبتدعة ، لأن إحساس الشاعر بها غاية في التوقد ، فهو لا ينقل ما قرأ ، وإنما يصور ما أحس . وهنا سر الابتكار والابتداع ، وهل يمكن الامتراء في أصالة هذا البيت :

والنصن مياس القوام كأنه نشوان يُصبح بالنميمة ويُنبق
« والنميمة » هنا هو الخمر ، وهي كلمة قليلة الوجود في الخمرات ،

ولكنها لا تنظم على من بنافس أبانواس فيقول في هذا التصيد :
وسلافة باكرتها في فتية من مثلها خلق لهم وتخلق
قد عثقت حتى تناهت جدّة وكذلك يصفو التبرحين يحمق
شربت كثافتها الدهور فما ترى في الكأس إلا جدوة تتألق
يسمى بها ساق بهيج به الهوى ويرى سبيل العشق من لا يمشق
تتنادم الألاحظ منه على سنا خد تكاد العين فيه تفرق
راق الميون غضارة ونضارة فهو الجديد ورق فهو معتق
ودنا كما لمع الحسام المنتضى ومشى كاهتر القضيب المورق
لا غرر أن تملت معاطفه فنا ينفك في فيه الرحيق يصفق
وأظله من فرعه وجبينه ليل تألق فيه صبح مشرق
وكان مقلته تردد لفظه لتقولها لكنها لا تنطق
فإذا الميون تجمعت في وجهه فاعلم بأن قلبها تفرق

وهذا والله من نفيس الكلام ، كما يعتبر محمد بن داود في كتاب الزهرة ، على روحه اللطيف ألف تحية وألف سلام ! كان أبو نواس يشتري المغاني من الشعراء ، يشتريها بالدينار ، ويهدد باغتصابها إن رفض البائع ، وكانت حجته أنه الباقي وأن من يساومهم إلى فناء

فما الذي كان يصنع أبو نواس لو عاصر المحيوي وقرأ هذه الأبيات في وصف الخمر والتغزل في الساق ؟ كان يقدم أيامه لادنير ليضيف هذه الأبيات إلى أشعاره في الخمرات

هذه أبيات نفيسة جداً ، والشرح يفسدها ، فلنتركها بلا شرح ، فهي كقطة ذلك الساق ، تردد لفظه ولكنها لا تنطق ! ثم ما ذا ؟ ثم ينطلق الشاعر في مدح الملك الصالح بأسلوب يشبهه البحري المنفرد بإجادة المدائح ، فيقول :

إيه مديحي لا خطاك قصيرة يوم الزمان ولا مجالك ضيق
هذا مقام الملك حيث تقول ما

تهوى وتظن كيف تثبت فتصدق
في حيث لا شرف الصفات بعموز فيه ولا باب الدأخ معلق
هذا شاعر كان له ملك يتذوق الشعر فأبدع في الفناء ، وطاب له أن يقول :

فأله محمد ثم « أيوب » الذي أمن النقي به وأثرى المملق
والشطر الثاني من هذا البيت يصور المجتمع المصري في ذلك الزمان ، فقد كانت الغاية أن يأمن النقي سطوات الناهيين ، وأن يصل المملق إلى الإثراء

وفي وصف الأبنية يقول المحيوي :
شيدت أبنية تركت حديثها مثلاً يفرّب ذكره ويشرق
من كل شاهمة تظلم تمجباً

من هول مظلمها الكواكب تشفق
لبس الرخام ملوناً فكأنه روض يقوفه الربيع الفديق
واختال في الذهب الأصيل سقوفه

فكأنه شفق الأصيل المشرق
يا حسنها والنيل بكتنف بها كالسطر مشتتاً عليه المهرق
فكأنها طرف إليه ناظر وكأنها جفن عليه محرق
وافاء مصطفاً عليه موجه فكأنما هو للسرور مصفق